من ذكريات الطفولة :

ظننته يوم القيـــامة ولكن الله سلم

للأستاذ كامل كيلاني

لعل هذه أول صورة انطبعت في ذاكرتي من ذكريات الحياة كلها . أذكر أنني وجدتني جالساً في مكتب (كتاب) قريب جداً من داري إلى جانب ابن أختي ، ولست أدري لماذا استصحبني إلى مكتب الفقيه وأنا في مستهل نشأتي وفجر طفولتي ؟ وكان الأطفال في هرج ومرج لا أعرف لهما سبباً ، بل لعلي عرفت السبب فيما بعد ، فقد كان غياب الفقيه فيما أظن سبب ذلك الاضطراب ، ولم يكن عريف المكتب على ضخامته وطول قامته بقادر على السيطرة على أولئك الأشقياء الخبثاء ، ولعل الأطفال كانوا يسخرون به لأنه أشل (أعني أن إحدى يديه ولعلها اليسرى شلاء) ، ولا أدري كيف حاول أن يثبت سيطرته في الحانط فلم يجد شيئاً يدقه به ، فلما ضاقت به الحيل عمد إلى محبرة سيدنا ، وكأنما خيل إليه أن ضخامتها ستحميها من الكسر ، ولعله نسي أنها من الزجاج الفرغ ، وأنها لن تقوى على دق المسمار ، على أنه لم يكد يبدأ الدقة الأولى حتى خرق المسمار المحبرة وسال مدادها الأسود على وجه العريف ويديه وثوبه !

فهال الأطفال وصيحوا وصفقوا من فرط سرورهم بما رأوا ، ولا زالت صورة العريف ماثلة أمامي ، منطبعة في ذاكرتي ، وأنا أملي هذه السطور ، كأنما رأيت منذ لحظات يسيرة وهو يحاول جهده أن يهدئ من ثائرة الأولاد ، فلا يزيدهم ذلك إلا تمرداً وصخباً ، وقد زادتهم حيرته وارتباكه نشاطاً ومرحاً . وهنا يدخل الفقيه ، وهو شيخ رائع السمت ، فارع الطول ، متجهم الوجه ، قوي الشخصية ، فيسود الصمت والفزع ، ويستولي علينا الخوف والهلع ، ويتبدل كل شيء في لحظة واحدة من الضد إلى الضد ، فلا يكاد يجرؤ أحد على التنفس خشية أن تسمع نأمته فتجلب عليه شراً مستطيراً ، ويأمر الفقيه بإحضار (الفلقة) ، ولا يكاد ينتهي من خامس الأولاد في الصف الأول ، حتى تعتريني القشعريرة ، فقد جاء الدور علي ، وإني لأترقب إشارة الفقيه بوضع رجلي في حبل الفلقة ، وقد استولى الذعر على نفسي ، إذا بجلجلة أشبه بقصف الرعود ، وصيحات عالية مدوية تأخذنا من كل مكان وإذ بسقف المكتب يطير كل مطار ، وقد تناثرت ألواحه وتطايرت أركان الجدار وقواعده ، واختفى الشيخ والعريف وصبية المكتب في لحظة واحدة عن عيني فلم أدر أين فروا !

وما أذكر بعد ذلك إلا أنني كنت أمشي مع ابن أختي في طريقنا إلى البيت والأحجار تتناثر من حولنا في كل مكان ، فتقتل من تقتل ونحن لاهيان لا ندري من أمرنا شيئاً . فلما بلغنا الدار — وهي قريبة من جبل القطم — إذ بالهلع يستولي على كل من فيها ، وإذ بزجاج النوافذ محطم . وأذكر أنني سألت ابن أختي عما حدث فقال لي : إن القيامة قد قامت ! ولم أفهم حينئذ معنى هذه الجملة ، ولا عرفت ما هي القيامة ، ولا كيف تقوم ، ولعلي لم أفهم معناها الغامض أكثر مما يفهم السامع الخالي الذهن حين يقال إن نائماً صحا ، أو صاحياً نام ، أو زائراً قدم ، أو قاعداً قام . ولم أفهم حقيقة ما حدث إلا بعد سنوات عدة ، فقد عرفت والمهدة على من حدثني ، فلم أستق الخبر حينئذ إلا من حوذي كان عندنا ، وقد كان رحمة الله عليه نصف أمي إذا وزنته بميزان الثقافة والاطلاع ، ونصف فيلسوف إذا وزنته بميزان الفهم والإدراك . حدثني ذلك الفيلسوف الأمي قال : « كان يشتغل في مخزن الذخائر الحربية الملاصق لجبل القطم أحد العمال ، فألقى على غير انتباه بما تبقى من لفافة التبغ ، فلم تلبث أن علقت بما حولها من البارود ، فوقعت الكارثة وأطارت من حجارة القطم ما أطارت ، وقتلت من الأناس والحيوان من قتلت ، ودمرت من الآثار ما دمرت . وكان الحوذي يشير بإصبعه إلى رؤوس المآذن التي طاحت بها وهي قريبة من دارنا . لقد كان هول القيامة يتمثل لي حينئذ في عصا الفقيه وقد فرحت بنجاتي منها ، فلما كبرت تبين لي أنني فرحت بالنجاة من خطر موهوم ، لأنني كنت أصغر من أن يعاقبني الفقيه أو يهم بضربي ، فلم أتجاوز الثالثة من عمري حينئذ ، ونسيت أنني نجوت من هلاك محقق بأعجوبة من الأعاجيب . وعلى ضوء هذا الحادث الهائل فهمت في قابل أيامي دقائق الصورة البيانية الرائعة التي أبدعها خيال المتنبي شاعرنا الأكبر حين قال لسيف الدولة :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

كامل كيلاني